المادة: المدارس التاريخية
المستوى: السنة الاولى ماستر
التخصص: تاريخ المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية

المحاضرة 02:

المدرسة الوضعية (Positivism)

لقد انعكس اثر ما أحرزته العلوم الطبيعية من تقدم منذ القرن السابع عشر على العلوم الإنسانية، وكان التساؤل الأكبر حول إمكانية تطبيق المنهج العلمي ومن هنا كانت محاولة الوضعيين، والتي تمثلت في إسقاط القوانين الخاصة بعلوم الطبيعة على الإنسان، وتعد ألمانيا الموطن الأصلي للمدرسة الوضعية، وبالأخص في القرن التاسع عشر، وأمنت هذه المدرسة بأن العلم الوحيد هو علم الطبيعة القائم على الرياضيات والتجربة، ولا يهتم بتاريخ الجزئيات، وإنما بالتاريخ ككل، والأهم أن الحدث التاريخي بالنسبة للوضعي التجربة يمارسها فيحاول أن يستوثق من الحدث ويثبته تاريخياً.

ويرجع الفضل في التقدم بالنسبة لهذا المجال لمجموعة من الفلاسفة الذين اشتغلوا بالمنهج مثل بيكون ولوك وهيوم ، فبيكون هو مؤسس المنهج التجريبي ومنهج الاستقراء الذي يقتضي جمع اكبر عدد ممكن من الأحوال المتعلقة بالظاهرة المراد دراستها في الظروف المتغيرة للوصول الى صياغة القانون المتحكم فيها .

انعكس هذا في مجال التاريخ من خلال :

- 1- جمع اكبر قدر من الوقائع التاريخية بهدف الوصول إلى أحكام كلية .
- 2- تزويد الإنسان بأحكام تمكنه بان يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرة الماضي .
- 3- استبعاد النظرة "اللاهوتية" عن التاريخ ، أي دراسة أفعال الإنسان وليس الأمور الغيبية .

وانطلاقاً من هذا كانت إسهامات لوك وهيوم في حقل الدراسات التاريخية والمتمثلة أساساً في أن المعرفة التاريخية تقوم على المادة التاريخية وليس على عقل المؤرخ. وانعكس هذا على شيوع الروح النقدية.

وما إن حل القرن التاسع عشر حتى صار لعلم التاريخ منهج واضح المعالم وبالأخص بفضل ما قدمه كل من لانغلو وسينوبوس في كتابهما "المدخل إلى الدراسات التاريخية".

إن التاريخ يتم بالوثائق "هذه المقولة لشارل لنكلوا وشارل سينوبوس مقولة صحيحة، لكنها تفرض ضرورة تحديد مفهوم الوثيقة أو المصدر، فماذا نقصد بالوثيقة؟ إن القاموس يعرف الوثيقة بكونها مصدر كل خبر، إنها حجة وشاهدة على وقوع الحدث.

في الماضي كان المصدر التاريخي لا يخرج عن دائرة الوثائق المكتوبة وبقايا الآثار، لكن مع مرور الزمن اتسعت لائحة المصادر التاريخية، وتعاملت المدرسة الوضعية مع الوثيقة باعتبارها:

_ الوسيلة التي تطلعنا على الماضي.

_ الأداة التي يعمل بها المؤرخ.

_ الحجة على أن التاريخ علم، فالكشف عن الوثائق يعني معرفة الحقيقة التاريخية.

وقد وضع لأنجلو وسينوبوس في كتابهما "مدخل للدراسات التاريخية" قواعد لاستغلال الوثيقة، وأهمها التحليل الاستقرائي للوثيقة عن طريق إتباع الخطوات التالية:

الأولى: التحقق من أصالة الوثيقة. ويكون ذلك بالبحث عن الوثائق وتصنيفها مع الاستعانة بالعلوم المساعدة (الفيلولوجيا: علم اللغة) الباليوغرافيا (علم قراءة النصوص القديمة) والاركيولوجيا والأيكرافيا (علم النقوش)، لذلك فعلى المؤرخ أن يكون موسوعي الثقافة متخصصاً عارفاً بالعلوم المتصلة بالتاريخ

الثانية: التحقق من مطابقة ما ورد في الوثيقة لما وقع فعلاً. ومن ثم يتم استبعاد كل ما ليس له صلة بالموضوع والوثائق المتحولة أو الكاذبة ومن ثم يسعى الباحث في الخطوة الأولى إلى التيقن من:

1- أصالة الوثيقة وخلوها من الأخطاء والتزوير أو الحشو والإضافة.

2- صحة نسبة الوثيقة إلى صاحبها.

وتعرف هذه المرحلة بمرحلة النقد الخارجي لتأتي بعد ذلك مرحلة النقد الباطني للتيقن من أن مضمون الوثيقة مطابق للوقائع ولهذه المرحلة أيضا جانبان:

-النقد الداخلي السلبي: وفيها يتأكد الباحث درجة دقة الرواية

-النقد الداخلي الايجابي: تفسير مضمون الوثيقة.

ويتميز المؤرخُ الوضعيُّ في كتابته للتاريخ بأربع مراحل: مرحلة تجميع الوثائق، ونقدها، وضبط الأحداث، وأخيرًا سرد هذا الحادث، مع الاهتمام بكتابة الهوامش والحواشي أسفل الصفحات أو في نهاية ورقة التاريخية، ويستخدم الرسم البياني والإحصائي في إثبات وجهات نظره، وهو يرى أن يتحرّر المؤرخ من انتماءاته السياسية والثقافية والدينية والقومية وما شابه. وفي كتابه "المنهج التاريخي المطبق في العلوم الاجتماعية" شارل سينيوس بوس الذي صدر عام 1901 انه لا يعترف لعلم الاجتماع بالمكانة الأولى ضمن العلوم الاجتماعية ويعتبر ان المؤرخون هم الاتحاديون الوحيدون "

لقد اعتبر مؤرخو عصر التنوير التاريخ في تدهور خلال العصر الوسيط وفي تقدم خلال عصرهم أي القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهم بذلك تجاهلوا صفتي الديمومة والاتصال بين أجزاء التاريخ، فالعصر الوسيط هو حلقة الاتصال بين الماضي والحاضر، وليس خرافة كما يرى "فولتير" والتقدم الحاصل في علم التاريخ وغيره لا يعزى لمجرد قوة العقل و الانتصارات العلمية المحققة ولكن أيضا إلى جوانب أخرى متباينة تشتمل أيضا الإرادة والجوانب الوجدانية، وكما لا تفهم شخصية الإنسان إلا في ضوء كل تلك الجوانب فان الأمة أيضا لا تفهم روحها المميزة لها إلا في ضوء مكوناتها جميعا (الدينية والفلسفية والاقتصادية والسياسية ..).

ولكي يمكن التعرف على شخصية الأمة إلا بالتفاعل معها ويستشعر في ذاته تراثها ولا يتسنى له ذلك بواسطة الكليات المجردة كما في العلوم الطبيعية.

وهكذا فان هناك مواطن لقصور هذه المدرسة وتمثل في رفضهم النتائج الفلسفية التي تتجاوز النظريات العلمية الطبيعية التجريبية. كما أنهم سقطوا في التحزّب للقومية. ومن أشهر المؤرخين الوضعيين أرنست لافيس، ليوبولد فان رانكه، أوغست كونت.

غير إننا دعنا نستدرك الأمر فيما يتصل بليوبولد فان رانكة مثلا، إذ رغم انه ذو نزعة علمية ورائد المدرسة العلمية (الوضعية) في ألمانيا، إلا انه يعتبر الواقعة التاريخية فردية لها طابعها الذي تنفرد به ومن ثم لا تتماثل واقعتان ولا تدرجان تحت نوع كما يندرج الأفراد في العلوم الطبيعية، ان ديمقراطية أثينا ليست ديمقراطية بمفهوم العصر الحديث.